أضرحة الأولياء الصالحين في ليبيا
دراسة أثرية عمارية"

أ.م.د.سعدي إبراهيم الدراجي
مركز إحياء التراث العلمي العربي
جامعة بغداد

(**خلاصة البحث**)

يمكن الاستدلال على كثرة أضرحة المرابطين في ليبيا من خلال الإحصاءات التي قدمها بعض الكتاب في العصر العثماني. ومن أهمها ما ورد في كتاب "الإشارات لبعض ما في طرابلس الغرب من مزارات" الذي ألفه عبد السلام بن عثمان الطرابلسي وفرغ من كتابته عام 1094هـ/1682م، وقد أحصى فيه جميع المزارات المنتشرة على طول الشريط الساحلي بين طرابلس ومصراته وكانت غاية الكاتب من هذه الرحلة التعريف بالمرابطين ومكانتهم الدينية والاجتماعية، ولأهمية الكتاب قام بترجمته الإيطالي أنطونيو تشيزارو(A.Cesa`ro) في أثناء فترة الاحتلال الإيطالي، فتابع جميع المزارات الوارد ذكرها في الكتاب. وقد سجل تشيزارو خلال رحلته ملاحظات كثيرة واستطاع أن يحصي 318 ضريحاً في المنطقة المذكورة منها 121 ضريحاً متوجاً بقبة[١].

(١) Cesa'ro, A., Santuari Islamici Nel Secolo XVII in Tripolitania, Tripoli (1933), p.133-144.

مقدمة

تقسم أضرحة الأولياء والمرابطين في ليبيا إلى قسمين: الأول أضرحة مستقلة يقوم معظمها في المقابر القديمة المنتشرة داخل المدن سواء الساحلية مثل طرابلس وبنغازي وزليتن ومصراته أو الصحراوية كاوجلة وسبها ومرزق وغات. ومنها ضريح سيدي غازي وسيدي خريبيش وسيدي داود وسيدي حسين وسيدي محمد الشريف وسيدي الشابي....الخ. أو مدفون في بيوت كانت موزعة في حارات المدن ومنها بنغازي التي فيها أضرحة كثيرة من هذا النوع كضريح سيدي مؤمن وسيدي بالخير وسيدي علي الوحيشي وسيدي سا لم وسيدي غريبيل.والقسم الأ خر ملحق بالجوامع والزوايا وهي تنسب إلى أولياء من أهل تلك المدن أو من الوافدين عليها من مختلف البلاد الإسلامية ومعظمها جدد أو أزيل في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي ولم يبق منها اليوم محافظا على شكله القديم سوى النزر اليسير.ومن الناحية العمارية يمكن تقسيم الأضرحة في ليبيا إلى ثلاثة طرز بالاعتماد على طبيعة العمارة وتخطيطها.

الطراز الأول: أضرحة صغيرة تقوم منفردة قوام شكلها ألعماري حجرات مربعة ذات سقوف مستوية من الخشب.

الطراز الثاني: أضرحة على شكل حجرات كبيرة تعلوها قباب وأقبية معا. أو مسقفة بسقوف مستوية من الخشب. وفي بنغازي أمثلة مصممة على شكل حجرات كبيرة مقسمة من الداخل إلى ثلاثة أروقة بوساطة أربعة أعمدة والأروقة تسقف بقباب وأقبية.

الطراز الثالث: أضرحة ملحقة بها أبنية مكملة.

على الرغم من موقف الإسلام المتشدد من البناء فوق القبور، فقد حرص المسلمون على تخليد ذكرى رجالاتهم فشيدوا مبان ضخمة لتكون مراقد للأئمة

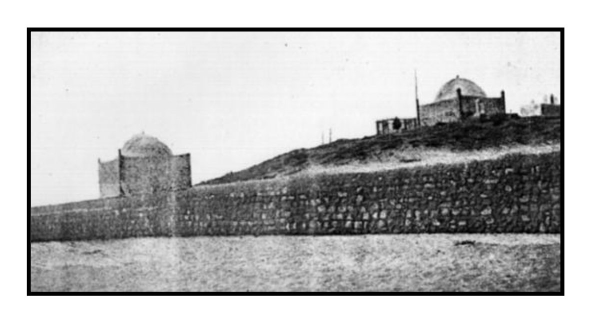
والصالحين، وقد دعيت هذه الأبنية بأسماء متعددة منها: مشاهد، أضرحة، مزارات، مراقد، ترب، روضات، قباب، عتبات مقدسة، مشاعر مقدسة. وفي المغرب العربي استعملت كلمة مرابط للدلالة على المدفن. وتُعد القبة الصليبية التي شيدت في سامراء سنة 248هـ/ 862 م لتكون مرقداً لثلاثة من الخلفاء العباسيين، أقدم ضريح ما تزال آثاره شاخصة إلى الوقت الحاضر [١]. أما في ليبيا فان أقدم الأضرحة التي مازالت قائمة حتى اليوم تشاهد في زويلة[٢]، تعود إلى أسرة بني الخطاب التي حكمت فزان منذ أوائل القرن الرابع الهجري إلى القرن السادس الهجري وعددها سبعة. وتتميز هذه الأضرحة بأنها مبنية على شكل خطٍ واحد يمتد من الشمال إلى الجنوب. وقوام كل واحدة منها حجرة مربعة ترتفع بمقدار سبعة أمتار تقريباً، يعلوها قبة نصف كروية صغيرة مبنية بالحجارة والطين[٣].

ويمكن الاستدلال على كثرة أضرحة المرابطين في ليبيا من خلال الإحصاءات التي قدمها بعض الكتاب في العصر العثماني. ومن أهمها ما ورد في كتاب "الإشارات لبعض ما في طرابلس الغرب من مزارات" الذي ألفه عبد السلام بن عثمان الطرابلسي وفرغ من كتابته عام 1094هـ/1682م، وقد أحصى فيه جميع المزارات المنتشرة على طول الشريط الساحلي بين طرابلس ومصراته وكانت غاية الكاتب من هذه الرحلة التعريف بالمرابطين ومكانتهم الدينية والاجتماعية، ولأهمية الكتاب قام بترجمته الإيطالي أنطونيو تشيزارو(A.Cesa`ro) أثناء فترة الاحتلال الإيطالي، فتابع جميع المزارات الوارد ذكرها بالكتاب. وقد سجل تشيزارو خلال رحلته ملاحظات كثيرة واستطاع أن يحصي 318 ضريحاً في المنطقة المذكورة منها 121 ضريحاً متوجاً بقبة[٤].

ويمكن تقسيم أضرحة الأولياء والمرابطين في ليبيا إلى قسمين: الأول أضرحة مستقلة يقوم معظمها في المقابر القديمة المنتشرة داخل المدن سواء الساحلية مثل طرابلس وبنغازي وزليتن ومصراته أو الصحراوية كاوجلة وسبها ومرزق وغات.

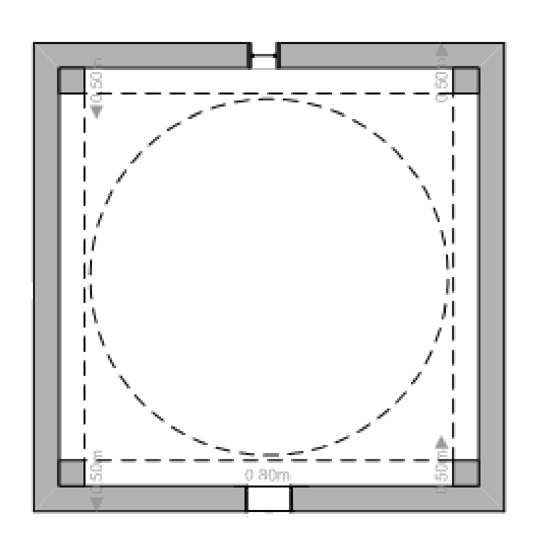
والقسم الثاني ملحق بالجوامع والزوايا وهي تنسب إلى أولياء من أهل تلك المدن أو من الوافدين عليها من مختلف البلاد الإسلامية ومعظمها جدد أو أزيل في سبعينيات وثمانينيات القرن الماضي ولم يبق منها اليوم محافظا على شكله القديم سوى النزر اليسير. ومن الناحية العمارية يمكن تقسيم الأضرحة في ليبيا إلى ثلاثة طرز بالاعتماد على طبيعة العمارة وتخطيطها.

الطراز الأول: أضرحة صغيرة تقوم منفردة قوام شكلها ألعماري حجرات مربعة ذات سقوف مستوية من الخشب. أو حجرات جدرانها الأربعة معززة من الداخل بعقود مندمجة تستند على أكتاف، ويغطي الحجرة في معظم الأحيان قبة نصف كروية تقوم على حنايا ركنية بسيطة. وهذا النوع من الأضرحة ينتشر عادة في المقابر ومن أقدم الأمثلة ضريح سيدي غازي الذي يشاع بان اسم مدينة بنغازي مشتق من اسم هذا الرجل الصالح وقبره كان قائماً بشكل منفرد داخل مقبرة سيدي خريبيش. وبقربه ضريح آخر ينسب إلى ولي معروف يدعى خريبيش. كما كانت القبة نفسها تشاهد أيضا على أضرحة أخرى قديمة تقع في ضواحي المدينة مثل سيدي داود وسيدي حسين.



مقبرة سيدي خريبيش

ومن خصائص الأضرحة في هذا الطراز هو البساطة في البناء وقد تميزت بأنها ملساء لا تظهر مناطق انتقالها من الخارج وهي دونما رقاب لذلك خلت من النوافذ، كما خلت من الزخرفة. والإضافة الوحيدة التي تكاد ترى من بعيد هي رفع أعمدة قصيرة أو كتل صغيرة مثلثة فوق أركان البناء. ومن أحسن الأمثلة القائمة ضريح سيدي شريف المبروك.(المخطط – 1)



(المخطط – 1) ضريح سيدي شريف المبروك/رسم الباحث

إن من أقدم الأضرحة في هذا الطراز ما زال قائما في مدينة درنة(٥)، وتنسب إلى ثلاثة من الصحابة الذين قضوا عام 69هـ أثناء الفتوحات الإسلامية الأولى. وقد دفنوا في أقدم مقابر المدينة ثم شيد على قبورهم أضرحة تعلوها قباب، الضريح الأول لزهير بن قيس البلوي ويقع على يسار الداخل ، يليه ضريح عبد الله بن بر القيسي، ثم ضريح أبي منصور الفارسي ويقع على يمين الداخل، وقد أقيمت قبور الثلاثة على مدخل مغارة، دفن فيها بقية الشهداء من رفاق زهير بن قيس ويبلغ عددهم نحو سبعين على أصح الروايات ، وقد تم تشييد هذه الأضرحة في القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي وينسب بنائها إلى المصلح محمد باي (ت1110هـ/1696م) الذي عين قائدا على درنة والجبل الأخضر بعد وفاة والده الحاج محمود باي الذي كان حاكما على بنغازي ودرنة والجبل الأخضر في الثلث الأخير من القرن السابع عشر الميلادي. وكان لمحمد باي أعمال جليلة في المدينة من أبرزها بناء الجامع العتيق وشق ساقية تنقل المياه من الينابيع العذبة الكائنة في أطراف المدينة إلى داخلها ليتسنى للناس الشرب وسقي حيواناتهم وحقولهم. كما أن للمصلح (محمد باي) أعمال أخرى حيث أوقف الكثير من ماله وأراضيه للصالح العام ومنها الأرض الكائنة بجوار جبانة الصحابة، والتي جعلها مقبرة لدفن أموات المسلمين وكانت تسمى بـ (جبانة سيدي محمد بي).(٦)



أضرحة الصحابة في درنة

وقوام أضرحة الصحابة في درنة حجرات تقوم منفردة داخل مقبرة واسعة تعد من أقدم مقابر المدينة. وتعلو الحجرات قباب نصف دائرية تقوم على حنايا ركنية بسيطة. والأضرحة مزودة بمداخل تعلوها عقود حدوية لها دبب خفيف (مخموسة). ورقابها قصيرة خالية من النوافذ.

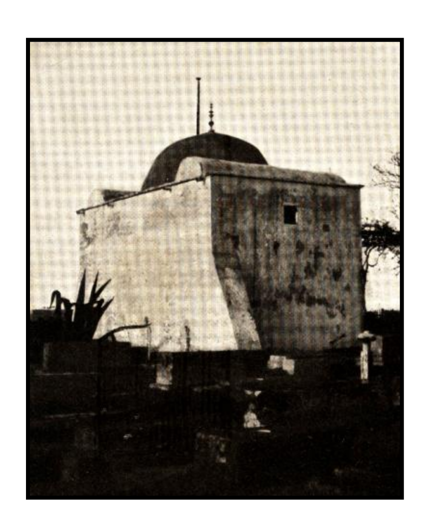
وفي زليتن أضرحة كثيرة من هذا الطراز تقوم منفردة وسط المزارع أو في مقابر المدينة وأطرافها، كضريح سيدي فيتور الواقع في منطقة الفواتير السبعة وضريح سيدي بورقية. وبنائها لا يختلف عن الأضرحة السالفة الذكر في كل من بنغازي ودرنة وطرابلس.



ضريح في زليتن

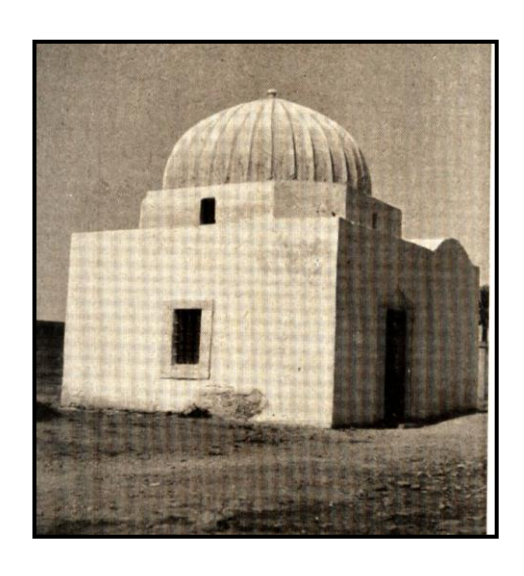
الطراز الثاني: أضرحة على شكل حجرات كبيرة تعلوها قباب وأقبية معا. أو مسقفة بسقوف مستوية من الخشب. وفي بنغازي أمثلة مصممة على شكل حجرات كبيرة مقسمة من الداخل إلى ثلاثة أروقة بوساطة أربعة أعمدة والأروقة تسقف بقباب وأقبية كما هي الحال في ضريح سيدي خليفة، أو تسقف بسقوف مستوية من الخشب كما في ضريح سيدي الوحيشي.

وكانت طرابلس إلى وقت قريب تحتفظ بأمثلة طيبة من هذا الطراز ومن أهمها ضريح سيدي منيذر المدفون في أقدم مقابر المدينة، وحجرة الضريح مستطيلة الشكل لذلك قسمت من الداخل إلى ثلاثة أقسام كي يسهل تسقيف القسم الأوسط بقبة، أما الجناحين فيعلو كل منهما قبو نصف دائري. وعلى الرغم من ثخن الجدران الأربعة لحجرة الضريح عمد المعمار إلى تعزيز البناء بعقود تساعد على رفع الأثقال الكبيرة المسلطة من الأعلى.



ضريح سيدي منيذر

ومن هذا الطراز ضريح في طرابلس ينسب إلى سيدي محمد بن جحا متميز بقبته الكبيرة المزينة من الخارج بضلوع، وهي نصف كروية تقوم على رقبة بدت من الخارج مرتفعة لفتح أربع نوافذ تسهم في إنارة الضريح. وقوام عمارة الضريح حجرة مستطيلة مقسمة إلى قسمين: القسم الأول مربع يعلوه قبة والقسم الثاني مستطيل يعلوه قبو، وللضريح مدخل واحد مشغول بباب خشب ونافذة كبيرة محمية بشبكة من الحديد.



سيدي محمد بن جحا

ومن أجمل الأمثلة القائمة اليوم في المنطقة الشرقية كلها، هو ضريح سيدي خليفة المدفون في منطقة حملت اسمه منذ أواخر العصر العثماني، وتقع إلى الشرق من بنغازي بمسافة 15كم.

•الأضرحة...دراسة تفصيلية؟

ضريح سيدي خليفة



ضريح سيدي خليفة/تصوير الباحث

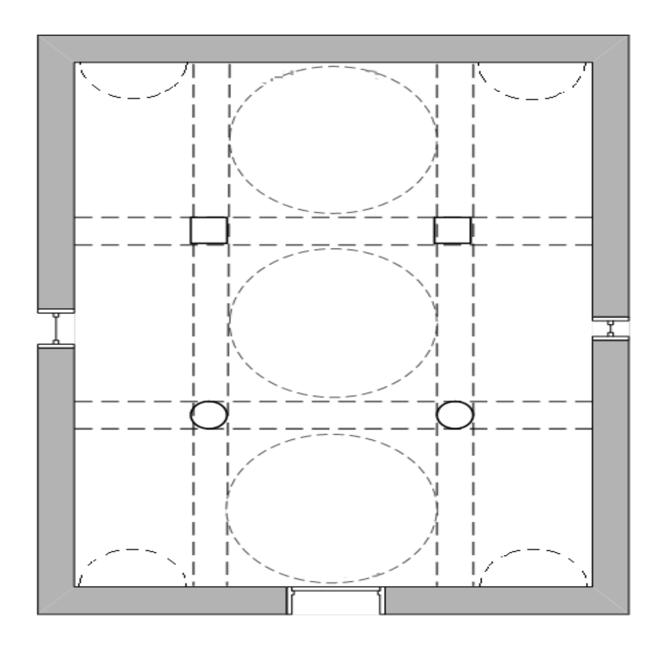
من المعروف إن هذا الضريح يعود إلى خليفة بن سليمان بن نجم من أحفاد سيدي خريبيش، توفي في العصر العثماني الثاني (1835-1911م) كما يذكر كبار السن([٧]). ومما يؤكد صحة تاريخ وفاته هو تسلسل ذرية هذا المرابط وأعمارهم الموثقة، فضلا عن تخطيط الضريح وطراز بنائه، إذ يعد من أقدم الأضرحة التي مازالت محافظة على حالتها الأصلية في هذا الإقليم.

يقع الضريح في قرية كبيرة تحمل اسم الولي(المرابط)نفسه، إلى الشرق من مدينة بنغازي بمقدار 15 كم تقريباً، والضريح لا يبعد عن الطريق الساحلي سوى أمتار معدودة ضمن مقبرة كبيرة قائمة فوق موقع اثري متميز بارتفاعه عن السهل المجاور يعود للعصر الروماني. وهو مبني بالحجارة الرملية والطين ومكسي من الخارج والداخل بطبقة من الجير.

وقوام تخطيط الضريح حجرة مستطيلة الشكل (6.65×5م) قسمت بوساطة أربعة أعمدة إلى ثلاثة أروقة، سقف الأوسط منها بثلاث قباب صغيرة، في حين سقف كل من الرواقين الآخرين بقبو نصف دائري. (المخطط– 2)

وعلى الرغم من صغر مساحة الضريح إلا أن المعمار اعتمد في التسقيف على القباب والأقبية، ورتبها وفق نظام متميز يفصح عن مدى إمكانية المعمار في خلق فضاءات صغيرة مرتبطة بقدسية المكان، وهي في الوقت نفسه وسيلة للتعبير عن ذوقه الرفيع في هذا المضمار. ولا شك إن هذا الأسلوب من التسقيف محلي قديم كان معروفاً في عمارة الطين المنتشرة في بعض الواحات الليبية ومن أهمها مدينة أوجلة التي مازالت تحتفظ بعدد من مساجدها القديمة المسقفة بقباب مخروطة مبنية باللبن.

لقد حافظ هذا الضريح على شكله وتخطيطه بفضل متانة الجدران وثخنها (0.65م)، وصغر مساحة الفضاءات فيه وأسلوب تسقيفها بالأقبية والقباب، كل ذلك ساعد على تماسك البناء وجعله في منأى من الصيانة التي اعتاد الناس إجرائها على المعالم الدينية. فضلا عن طبيعة الأرض الصخرية التي أقيم عليها البناء وارتفاعها عن محيطها قد جنبه الرطوبة والسيول التي تحدثها عادة الأمطار. والصيانة في الضريح اقتصرت على أكساء الجدران الخارجية بالاسمنت، وأرضيته ومعها القبور البالغ عددها ستة .



(المخطط –2) ضريح سيدي خليفة/رسم الباحث

ينصف واجهة الضريح مدخل مستطيل الشكل (1.80×0.85م) يكتنفه من الجانبين كتفين يعلوهما عقد نصف دائري مبني بصنج من الحجارة المنحوتة، وفتحة المدخل مشغولة اليوم بباب حديد حديث الصنع لاختفاء الباب الأصلي الذي قوامه فرد واحد من الخشب يدور بوساطة عمود مثبت بالطرف الأيمن من الباب يرتكز على صنارة حجرية، ويدخل من الأعلى في فجوة من البناء مرتبة في لوحة محشورة تحت عتبة المدخل المصنوعة من سيقان شجر الصنوبر(الصنور).

قُسمت حجرة الضريح إلى ثلاثة أروقة بوساطة عمودين اسطوانيين قطر كل منهما 30سم وارتفاعه الكلي مع التاج 1.25م مع كتفين ذات قطاع مربع. ولا ندري لماذا التنوع في استخدام الأعمدة والأكتاف وجميعها منحوتة من حجارة رملية مأخوذة من الموقع الأثري نفسه ؟. أما العقود التي تمتطي الأعمدة فهي قريبة من نصف الدائرة ولها أرجل مطولة ترتكز على حدارة قوامها كتلة مكعبة من الحجارة وضعت فوق

التاج وظيفتها استقبال رجل العقد.لقد جعل الرواق الأوسط أوسع الأروقة الثلاثة وعرضه 2م وهو مقسم إلى ثلاثة فضاءات مسقفة بثلاث قباب صغيرة تقوم على حنايا ركنية متوجة بعقود مدببة، وبواسطة هذه الحنايا البسيطة تحولت القاعدة المربعة إلى دائرة، كي يبدأ بناء القبة التي تميزت ببعض الدبب. ولما كانت الفضاءات التي تغطيها القباب الثلاث متساوية فمن الطبعي أن تتساوى القباب في أقطارها، والاختلاف يقتصر على القبة الوسطى التي جعلها المعمار أكثر ارتفاعاً من القبتين التي بإزائها. ولعل ذلك بقصد خلق تكوين غير تقليدي مفعم بالحركة ومنسجم مع طبيعة البناء.



ضريح سيدي خليفة من الداخل/تصوير الباحث

أما الرواقين الجانبيين فقد سُقف كل منهما بقبو نصف دائري بارز من الأعلى، وهو كالقباب خال من الفتحات ويستند من الوسط على أنصاف عقود لضيق مساحته التي تربو على 1.20م.

ولا يفوتنا أن نذكر بان حجرة الضريح مزودة بنافذتين من غير مصاريع الأولى مستطيلة (0.80×0.50م) مفتوحة في وسط الجدار الشمال الشرقي، والثانية (0.80×0.30م) مفتوحة في وسط الجدار الجنوب الغربي.

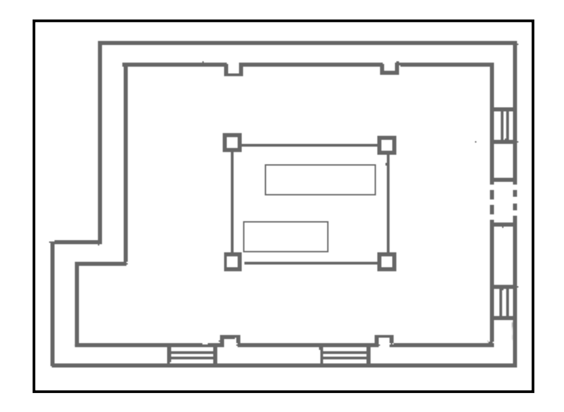
ضريح علي الوحيشي

هو من أقدم الأضرحة في بنغازي وينسب إلى رجل صالح قادم من المغرب الأقصى توفي على الأرجح في منتصف القرن الثامن عشر، ويقع في شارع الوحيشي ضمن المحلة الصغيرة التي كانت تحمل اسم هذا الولي الصالح. وتاريخ هذا الضريح متزامن على الأرجح مع الجامع المقابل له (جامع الوحيشي)، وقد جرى ترميم وإصلاح الجامع بعناية أسرة المهدوي عام 1297هـ/1880م(٨). ولعل التجديد الذي شمل الجامع في هذه الحقبة قد طال الضريح أيضا.

لقد ذكر هذا الضريح الطبيب الايطالي ديلا شيلا الذي رافق الحملة العسكرية الثانية التي قادها احمد باي بن يوسف باشا القرمانلي عام 1817م. وبعد أن وصف الحملة وخط سيرها وتعبئتها برسائل كان يبعث بها إلى ايطاليا. جاء على ذكر مذبحة الجوازي وكيف استُدرج ثلة من شيوخهم إلى داخل القلعة وقتلوا بسيوف البي وجنوده. وكان أفراد من هذه القبيلة المجتمعة مع أبلها وبقرها وأغنامها في مضاربهم على حدود المدينة قد تجرءوا على دخولها بدافع الفضول، فلما حدثت المأساة وسادت الفوضى ويئس هؤلاء من اللحاق بذويهم اختبئوا في ضريح سيدي علي الوحيشي حيث لم يجرؤ الباي على انتهاك حرمة هذا الولي فاكتفى بمحاصرتهم(٩).

وتتضح أهمية هذا الضريح في بنغازي ومكانة صاحبه من خلال بعض الوثائق، حيث دأب الناس خلال العصر العثماني الحلف في حالات التشاجر

والخصومة عند ضريح هذا الولي. ليس هذا فقط بل تأدية اليمين أحيانا للمُنكر في أية قضية تكون عند الضريح وبحضور عون المحكمة الشرعية لمدينة بنغازي. كما حدث في قضايا خلاف كثيرة بين الناس أثبتت في سجلات المحكمة الشرعية، ومنها على سبيل المثال دعوى مؤرخة في صفرعام 1268هـ (1851) وأخرى في شعبان 1271هـ(1855م)(١٠).



(المخطط –3) ضريح علي والوحيشي قبل التجديد/رسم الباحث

إن قوام تخطيط الضريح في الأصل حجرة مربعة الشكل تقريبا أبعادها (8.20×7.60م)، لعلها اقتطعت من بيت كبير كان قائما في هذا المكان يعود إلى أسرة الوحيشي التي انتسب أليها هذا الولي، ودفن فيه بعد موته. والحجرة مقسمة من الداخل إلى ثلاثة أروقة بوساطة أربعة أكتاف ذات قطاع مربع كي يسهل تسقيفها بالخشب.(مخطط –3) والضريح في الأصل له واجهتين: الأولى قبلية تنفتح بنافذتين على شارع ضيق يفصل بينه وبين الجامع، والثانية تفتح على الجهة الشمالية الشرقية ينصفها مدخل (2.30×1م) متوج بعقد مخموس (حدوة فرس مدبب) يرتكز على كتفين مندمجين. وعلى كل من يمين المدخل ويساره نافذة أبعادها (1.50×0.75م)

تتسع قليلا من الداخل، والنافذة من الخارج مؤكدة بإطار بارز منحوت بالحجارة مستطيل الشكل يشبه أطار المدخل. وفتحات النوافذ مشغولة بمصاريع أصلية من الخشب.

إن سقف حجرة الضريح يرتكز في الوسط على أربعة أكتاف مربعة، تربط بينها من الأعلى جوائز حديد مصندقة بالخشب امتدت نحو الجدران الأربعة للحجرة، وقد علت الجوائز عوارض قصيرة من الخشب ذات قطاع مربع غطتها ألواح عريضة رصت بجانب بعضها البعض بشكل محكم، ثم طرت الألواح من الأعلى بطبقة من الطين.

لقد سعى المعمار إلى جعل سقف الحجرة بمستوى واحد، باستثناء المنطقة الوسطى التي رفعت بجدار يربو ارتفاعه على متر واحد لفتح أربع نوافذ كبيرة للحصول على إنارة كافية، ولاشك أن هذا التصميم الذي يؤدي وظيفة القبة في توفير الإضاءة كان معروفاً في المساجد الأولى فوق بلاطة المحراب، وقبلها وجد في الكناس المبنية على الطراز البازليكي.

ومن الواضح أن الضريح الذي نحن بصدد توثيقه قد تعرض إلى تجديد وصيانة لمرات عديدة، أقدمها كان عام 1880م، ولعل جدران الحجرة القائمة ألان والبالغ ثخنها 60سم تعود إلى هذه الحقبة. أما السقف فلا شك انه مجدد وتجديده على الأرجح في فترة الاحتلال الايطالي أو بعدها، وربما السقف الأصلي كان مغطى بأعواد من أشجار الصنوبر(الصنور).

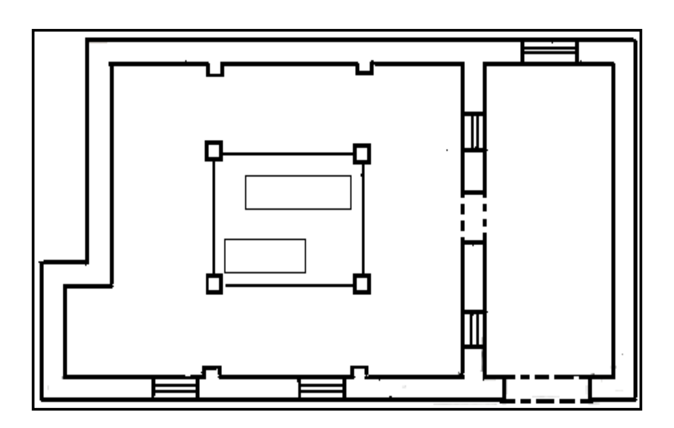
لقد شهد الضريح صيانة شاملة طالت جدرانه الأربعة حيث كسيت بطبقة من الاسمنت، ووسع في مساحته بإضافة ممر يمتد أمام المدخل الأصلي عرضه في المقدمة 3.60م(١١). والممر مصمم على شكل زقاق يبدأ بعقد نصف دائري. وكان في

نهاية الممر باب يؤدي إلى بيت الوحيشي، وأخر على يسار الداخل يؤدي إلى الضريح، ولعل الضريح كان في الأصل جزءً من البيت المذكور الذي تهدم في العقود الماضية واختفت معالمه تماماً. وبعد تهديم البيت سُقف الممر بالخشب وحول مدخل البيت إلى نافذة ليصبح الزقاق حجرة لها باب مفتوح تحت العقد.



سقف ضريح علي الوحيشي من الداخل/تصويرالباحث

ومن الإضافات الجديدة التي شهدها الضريح هو عزل احد الأروقة داخل حجرة الضريح بجدار حديث بغية تحويله إلى مطبخ لإعداد بعض المأكل والمشرب، مما ستوجب استحداث مدخل أضافي آخر. كما دعمت بعض جدر الضريح من الخارج بدعامات أضافية ساندة.(المخطط– 4)



(المخطط –4) ضريح علي الوحيشي بعد ضم الزقاق أليه/رسم الباحث

بقي أن نذكر بان حجرة الضريح تضم قبرين احدهما يتوسط المكان يعود إلى علي الوحيشي، والثاني إلى محمد احمد المهدوي الذي تولى خدمة الضريح والإشراف عليه وصيانته في أواخر العصر العثماني.

الطراز الثالث: أضرحة ملحقة بها أبنية مكملة مثل ضريح الفواتير السبعة والدوكالي في مسلاته وإبراهيم بن ناصر ومفتاح الصفراني في زليتن.

ضريح الفواتير السبعة في زليتن



ضريح الفواتير السبعة/تصويرالباحث

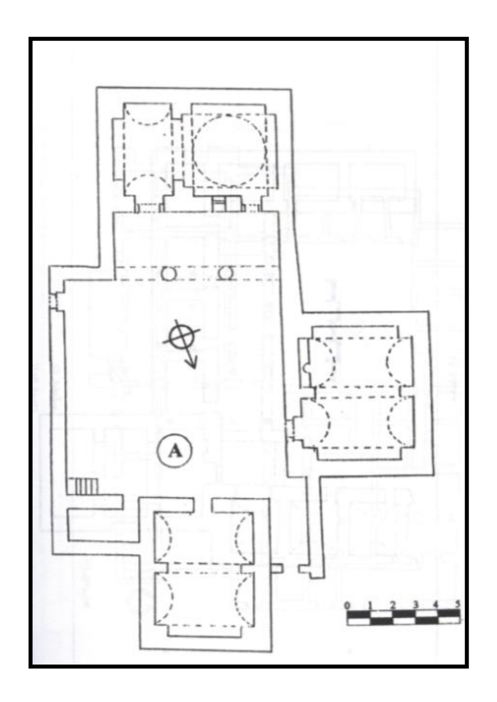
أقيم ضريح الفواتير السبعة على تل مرتفع نسبياً عن الأرض المحيطة به، ولعل سبب ارتفاع هذا الموضع يعود إلى تراكم الأنقاض المتخلفة من مبانٍ قديمة فضلاً عن طبيعة الأرض غير المستوية في هذه المنطقة. وارتفاع الموضع شجع الأهالي على اتخاذه مقبرة منذ وقت بعيد.

أما عن تاريخ البناء فلابد من الإشارة إلى أننا لم نهتد إلى تاريخ التشييد بدقة ل صمت المصادر عنه، كما أن المبنى ترك غفلاً من الكتابات التذكارية والنقوش التي تساعد الباحث عادة على تحديد هوية البناء وتاريخه.(١٢)

ويقيناً أن الضريح أقدم عهداً من الزاوية، ولعله يعود إلى القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي استناداً إلى طبيعة البناء والعناصر العمارية المستخدمة فيه، لاسيما القبة ذات الطراز العثماني. وكذلك الوصف الذي قدمه لنا صاحب كتاب الإشارات عندما أمّ زليتن في نهاية القرن السابع عشر الميلادي حيث أشار إلى مواضع القبور وتوزيعها داخل الضريح وخارجه على الشكل الذي هي عليه في الوقت الحاضر. مما يدل على أن البناء لم يتغير منذ زيارته(١٣).

وفيما يتعلق بعمارة المشهد، يستطيع المرء أن يلج إلى الصحن عبر مدخلين الأول يقع في الجهة الشمالية وهو حديث البناء، أما الثاني فيقع في أقصى الضلع الشرقي وينفتح على الخارج بعقد مخموس(١٤) يقوم على دعامتين من الحجارة المنحوتة.

والصحن مربع الشكل تقريباً أبعاده(9.5×10 م)، أقيم في زاويته الشمالية الشرقية مئذنة على شكل درج يتكون من خمس درجات كان يقف عليه المؤذن ينادي إلى الصلاة. كما يوجد في الصحن بئر مازال مستخدماً حتى الوقت الحاضر، بالإضافة إلى عدة قبور.(المخطط-5)



(المخطط– 5) ضريح الفواتير السبعة في زليتن/رسم الباحث

احتل المسجد الجانب الغربي وهو على شكل حجرة أبعادها(5.10×4.60 م) لها مدخل واحد ينفتح على الصحن بعقد مخموس. وفيها محراب صغير على شكل حنية صماء يؤشر اتجاه القبلة. وسقف المسجد مغطى بقبوين متجاورين يرتكزان في الوسط على عقد نصف دائري، والعقد يقوم على أكتاف ضخمة لتساعد في رفع الثقل الهائل الناتج من التقاء القبوين في هذه النقطة من البناء، كما عزز الجداران الشمالي والجنوبي بعقدين ملاصقين لهما.

أما الحمام فلا يختلف من حيث البناء عن حجرة المسجد وهو مستطيل (5.20×4.25 م) يعلوه قبوان منبطحان، وقد زود الحمام بالماء عن طريق بئر يقع في زاويته الجنوبية الغربية، وفيه دكة وخلوة للاستحمام.

ومن الملاحظ أن الحمام والمسجد يخلوان من النوافذ، وهي ظاهرة قلما نجدها في المرافق البنائية الأخرى، كما يجب الإشارة إلى الحجرة الصغيرة التي تجاور الحمام، وهي على شكل خلوة سقفها قد أزيل في الوقت الحاضر، وجدت لاعتكاف بعض الطلاب الذين يرومون حفظ القران.

ومن الطبعي أن يتميز الجزء الجنوبي من المشهد بعمارته عن باقي الأقسام لأنه يضم رفاة أولاد سليمان السبعة وقوام البناء حجرتان يتقدمهما رواق (2.5× 7.20 م) ينفتح على الصحن بثلاثة عقود نصف دائرية (شكل- 60)، والرواق مغطى بسقف مستو من الخشب وهو حديث البناء أضيف بعد سقوط السقف الأصلي الذي كان مشيداً بجذوع النخيل وجريدها.



ضريح الفواتير السبعة من الداخل/تصويرالباحث

ولكل من الحجرتين مدخل يشغله باب خشب، يطل على الرواق بعقد نصف دائري، والحجرتان تختلفان عن بعضهما في الشكل والقياس، فالأولى مربعة طول ضلعها من الداخل 3.30 م، تعلوها قبة نصف كروية مغلفة من الداخل بالآجر وهي

ترتفع في الهواء بمقدار 6م وللانتقال من الشكل المربع إلى الدائري استخدم المعمار في الأركان الأربعة حنايا كي ترتكز عليها الحافة السفلى للقبة. **ضريح الفواتير السبعة من الداخل**

وتخلو القبة المشيدة على هذه الحجرة من النوافذ، ويبدو أن الاعتماد في الإضاءة والتهوية كان مقتصراً على فتحة المدخل المشغولة بباب خشب قديم يتكون من مصراعين ثبت في كل من طرفيهما قائم من الخشب يدور من الأسفل على صنارة(١٥) حجرية ومن الأعلى يدور داخل لوح عريض من الخشب. ويحكم غلق كل من المصراعين مغلاق (مزلاج) (١٦) يتجه إلى الأعلى. وبجانب الباب نافذة صغيرة (60×80 سم) تعمل بنفس طريقة الباب وهي محصنة من الأمام بشبكة من قضبان الحديد.

أما الحجرة الثانية فهي مستطيلة الشكل(4.25×2.15 م) يعلوها قبو نصف دائري مغلف من الداخل بالآجر، ومن الملاحظ أن مدخل هذه الحجرة كان واسعاً بلغ عرضه 1.20 م وارتفاعه 2.5 م وربما أُريد بسعة المدخل التعويض عن النوافذ في إدخال الضوء والهواء.

بقي أن نذكر أن الحجرتين تنفتحان على بعضهما بوساطة عقدين متلاصقين، لكي تصبح الحجرتان قاعة واحدة في محاولة لتوسيع المكان، ومن المؤكد أن هذا الأمر سوف يساعد الزوار على الدخول والخروج بحرية أكثر، ويسهل الحركة في الداخل.

إن الذي ساعد المعمار على أن يهتدي إلى هذا التصميم بالدرجة الأساس هو عدم انتظام توزيع القبور في الموضع. فبدلاً من التفكير بإقامة قبة كبيرة تضم

تحت سقفها جميع القبور، شيدت حجرتان ورواق، علت القبة ثلاثة قبور في حين غطى الرواق القبور الثلاثة الأخرى.

ويقيني أن المعمار لم يكن عاجزاً عن إقامة القبة الكبيرة، لكنه أراد تقليل نفقات البناء فأوجد تصميماً ينسجم مع طبيعة توزيع القبور الستة على المساحة الفعلية للبناء، وأراد في الوقت نفسه أن يضفي على المكان بهاء يليق بأصحابه متوخياً البساطة ومبتعداً عن كل زخرف.

ولعل تعليلنا لسبب اختيار هذا الشكل من التصميم يلقى القبول إذا علمنا أن البناء الذي نحن بصدد دراسته مشيد في فترة متأخرة عن وفاة أولاد سليمان السبعة، ولا يستبعد أن يكون البناء الحالي مقاماً على أنقاض بناء أقدم منه عهداً ومخالفاً له في التصميم.

الخلاصة

- يعد الضريح من الوحدات العمارية التي لازمت الجوامع في ليبيا، فبعض الأضرحة الملحقة في الجوامع تقوم منفردة بعيدة عن بيت الصلاة كما في ضريح مراد أغا الملحق بجامعه الذي شيده في منتصف القرن السادس عشر الميلادي في تاجوراء. بيد أن معظمها تكون جزءً من المبنى تقوم بجانب بيت الصلاة أو أمام جدار القبلة وترتبط ببيت الصلاة عن طريق باب أو نافذة ومنها ضريح درغوث باشا ومحمد باشا شائب العين واحمد باشا القرمانلي وقورجي.

وخلت المساجد والجوامع الصغيرة من المدافن الكبيرة لعدم توافر المساحة الكافية لذلك، ومعظمها ضم ضريح صغير فيه قبر واحد أو عدد من القبور.

– حملت معظم الأضرحة في طرابلس شواهد تؤرخ للبناء في حين خلت أضرحة الأولياء في بنغازي من تلك الشواهد.

– ولا يشترط في بنغازي أن تكون المدافن ملحقة بالأبنية الدينية، لان بعضها ينتشر في أزقة المدينة وبين بيوتها، كما هي الحال في ضريح سيدي مؤمن. ومن الملاحظ إن هذا النوع من المدافن لا يخضع لتخطيط معين بل لظروف المكان.

– من الملاحظ إن المدافن الرسمية قد اقتصر وجودها في ليبيا على طرابلس الغرب وكانت مخصصة لدفن الولاة وأعضاء مجلس الولاية وكبار الموظفين، وأقدمها المدفن الملحق بجامع درغوث باشا (972هـ/1565م). ثم المدفن الملحق بمدرسة عثمان باشا الساقزلي (1064هـ/1653م). في حين خلت معظم المدن الليبية من المدافن الرسمية التي تخص الحكام، باستثناء بنغازي وفيها ضريح واحد ملحق بجامع بوقلاز (عصمان) ويخص الوالي رشيد باشا (ت1310هـ/1893م) الذي اعد لنفسه قبرا داخل الجامع وأوصى أن يدفن فيه. وكذلك في مرزق يوجد قبر لأحد الولاة.

– وفيما يخص الطراز فقد تم تقسيم الأضرحة في ليبيا إلى ثلاثة طرز بالاعتماد على طبيعة العمارة وتخطيطها.

الطراز الأول: أضرحة صغيرة تقوم منفردة قوام شكلها ألعماري حجرات مربعة ذات سقوف مستوية من الخشب أو تعلوها قباب، ومنها أضرحة الصحابة في درنة.

الطراز الثاني : أضرحة على شكل حجرات كبيرة مستطيلة أو مربعة تعلوها قباب وأقبية معا. أو مسقفة بسقوف مستوية من الخشب، مثل ضريح سيدي منيذر ومحمد بن جحا.

الطراز الثالث: أضرحة ملحقة بها أبنية مكملة كالمسجد والمواضي مثل ضريح الفواتير السبعة والدوكالي في مسلاته وإبراهيم بن ناصر ومفتاح الصفراني في زليتن.

الهوامش

(١) غازي رجب محمد، العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق، مطبعة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد (1989م)،ص407.

(٢) وتسمى بزويله السودان تميزاً لها عن مدينة زويله التي بناها الفاطميون قرب المهدية، وتقع في الصحراء جنوب شرق مدينة سبها بمقدار 160 كم. وهي قديمة فتحها عقبة بن نافع سنة 22هـ ، وقد أصبحت لزويله شأناً عظيماً في ظل أسرة بني الخطاب يوصفها أهم مراكز التجارة لوقوعها بين ملتقى الطرق الصحراوية المهمة. وقد وصف البكري مساجدها وأسواقها ومنازلها وعدها من المدن المهمة. البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، (د.ت) ، ص 10-11.

(٣) غاسبري ميسانا، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، طرابلس (1392هـ/ 1972 م)، ص 226.

للمزيد انظر: سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات القيادة الشعبية الاجتماعية، ليبيا (1993م)، ص163 وما بعدها.

(٤) Cesa'ro, A., Santuari Islamici Nel Secolo XVII in Tripolitania, Tripoli (1933), p.133-144.

(٥) درنة مدينة جبلية تقع على ساحل البحر المتوسط في شمال شرق ليبيا على خط طول 32.45 وخط عرض 22.40. يحدها من الشمال البحر الأبيض المتوسط ومن الجنوب سلسلة من تلال الجبل الأخضر. ويشطر المدينة مجرى وادٍ قديم إلى شطرين وهذا الوادي يسمى وادي درنة وهو أحد الأودية الكبيرة المعروفة في ليبيا. وقد اشتهرت المدينة بموقعها الجميل وبأحراشها الجبلية التي تسقى بمياه عذبة تتدفق إليها عبر قنوات الساقية من نبعين غزيرين أحداهما يعرف باسم عين البلاد، والثاني باسم عين بو منصور.

(٦) مصطفى عبد العزيز الطرابلسي، درنه الزاهرة قديما وحديثا، دار الأنيس للطباعة والنشر والتوزيع، مصراته (1999).

(٧) من اكبر أحفاده الحاج مصطفى بن حمد بن سليمان بن سيدي خليفة وهو من مواليد 1936م، قابلته بتاريخ2010.5.30م، وتسلسل ذريته الشيخ وأعمارهم الموثقة تؤكد تاريخ وفاته في العصر العثماني الثاني.

(٨) هنريكو دي اوغسطيني، سكان ليبيا، ترجمة خليفة محمد التليسي، ج 2، الدار العربية للكتاب(1990م)، ص314.

الأب فرانشيسكو روفيري، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية، التاريخ الكرونولوجي لبرقه (1551- 1911)، ترجمة إبراهيم احمد المهدوي، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس(2003م)، ص155.

(٩) ترجمة نص واقعة الجوازي عن الايطالية المرحوم محمد مصطفى بازامة. انظر، مدينة بنغازي عبر التاريخ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي (1968م)، ص277.

(١٠) يوميات بنغازية من خلال الوثائق العائلية، تجميع وتقديم اشرف منصور الطريدي، مركز التوثيق للخدمات الفنية والإعلامية، (د.ت)، سلسلة-1، 24-34.

(١١) يبلغ عرض الممر في المقدمة 3.60م ثم يتناقص من طرفه الآخر ليصبح عرضه 3.15م.

(١٢) زودت الصناديق التي تعلو بعض القبور داخل الضريح بكتابات متأخرة بعضها أبيات من الشعر.

(١٣) عبد السلام بن عثمان الطرابلسي، المصدر السابق، ص 73.

(١٤) العقد المخموس هو الذي يشبه حدوة الفرس لكنه من الأعلى مدبب الشكل.

(١٥) الصنارة: قطعة من الحجر وسطها مقعر، يدور فيها عمود نهايته مدورة مثبت في أحد جوانب الباب، وعادة تزود هذه الحفرة بالزيوت أو الشحوم التي تساعد على دورانه وتمنع الصوت الصادر من جراء الاحتكاك.

(١٦) المغلاق أو المزلاج، عمود من الخشب على شكل منشور رباعي طوله لا يزيد على قدم واحد يتحرك داخل فراغ في قطعة من الخشب مسننة مقبتة بأحد مصراعي الباب، وفي بعض الأحيان يكون المزلاج على شكل لوح مستطيل يتحرك داخل فراغ مرتب في العتبة العليا للباب.

المصادر والمراجع

- غازي رجب محمد، العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق، مطبعة التعليم العالي والبحث العلمي، بغداد (1989م).
- البكري، المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، (د.ت).
- غاسبري ميسانا، المعمار الإسلامي في ليبيا، تعريب علي الصادق حسنين، طرابلس (1392هـ/1972 م).
- سعدي إبراهيم الدراجي، زليتن دراسة في العمارة الإسلامية، منشورات القيادة الشعبية الاجتماعية، ليبيا (1993م).
- مصطفى عبد العزيز الطرابلسي، درنة الزاهرة قديما وحديثا، دار الأنيس للطباعة والنشر والتوزيع، مصراته (1999).
- هنريكو دي اوغسطيني، سكان ليبيا، ترجمة خليفة محمد التليسي، ج2، الدار العربية للكتاب (1990م).
- الأب فرانشيسكو روفيري، عرض للوقائع التاريخية البرقاوية، التاريخ الكرونولوجي لبرقه (1551- 1911)، ترجمة إبراهيم احمد المهدوي، منشورات مركز جهاد الليبيين، طرابلس (2003م).

– محمد مصطفى بازامة، مدينة بنغازي عبر التاريخ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، بنغازي (1968م).
– يوميات بنغازية يوميات بنغازية من خلال الوثائق العائلية، تجميع وتقديم اشرف منصور الطريدي، مركز التوثيق للخدمات الفنية والإعلامية، (د.ت)، سلسلة–1.
Cesa'ro, A., Santuari Islamici Nel Secolo XVII inTripolitania, Tripoli (1933).

Shrines of saints in Libya
"Archaeological study Marih "

Assistant Professor Dr. Saadi Ibrahim al Daraji
Center revival of Arab Scientific Heritage
University of Baghdad

(**Abstract Search**)

We can be guided to many tombs in Libya through the calculations which represented by many writers in the Othman age . one of the important writes came in the book " the signs to some of western Tripoli tombs" which was wrote by abd alsalam bin Othman al tarabolsi and he was done of writing it in 1904 \ 1682 and he collected all of the tombs layed in the entire cost line between Tripoli and misrata . the main purpose of this

journey to identify the holders and religious and social places and due to the importance of the book it was translated by the Italian writer Antonio cesaro During the Italian occupation , and he visited all the tombs which where mentioned in the book.Cesaro recorded in his journey many notes and he collected 318 tomb mentioned and 121 was having a dome.

We can defined the tombs in Libya into two parts : the first independent tombs and most of them are in the ancient grave yards spreaded inside cities of the coast like Tripoli , binghazi zelten , misrata and the cities which lies in the desert like ougla , sabha marzoq and gat.

An example for these tombs sedi ghazi , sedi kharbesh , sedi dawod , sedi houssaien . or buried in houses in the city like bin ghazi which have many spreaded in it like sedi moamen , sedi belkhier , sedi al waheshi.

The second part is a part of the masjids and corners which was named to those people who came from from different Islamic countries and most of them renewed or removed in the seventh or eighth of the last century and a few of them left and kept its old design.